

الفصل الثاني

جزيرة العرب في العهد العثماني

تاريخها السياسى

١ — خلاصة التطورات السياسية العامة :

دانت جزيرة العرب للأمويين ، بعد أن تمت الغلبة لهم على الهاشمين ، ثم خضعت للعباسيين ، وفى سنة ٢٥١ هـ ظهر فى الحجاز بنو الأخيضر . فلكوها ، وبقيت تحت سيطرتهم إلى أن تغلب عليهم القرامطة سنة ٣١٧ هـ ، ثم صارت للهواشم : وأولهم أبو هاشم محمد العاوى المتوفى سنة ٤٨٧ هـ واستقرت فى بنى قنادة ، وهم فرع منهم ، سنة ٥٩٨ هـ حتى العهد السعوى الأخير .

هذا ، ولما سقطت بغداد فى قبضة المغول ، وانتقلت منها الخلافة العباسية إلى القاهرة ، انتقلت معها إلى مصر تلك السيادة التى كانت لدار السلام على البلاد الحجازية وغيرها ، ثم أتيح للسلطان صلاح الدين الأيوبي أن يضم اليمن إلى مملكته ، وتمتع الأيوبيون من ثم بالسيادة على الجزيرة كافة . غير أن اليمن لم تثبت إلا قليلا حتى ثارت على المماليك الذين خلفوا الأيوبيين ، واستعادت استقلالها ، كما أن عدوا جديدا ظهر فى ذلك الحين ، فتغلب على بعض سواحل جزيرة العرب ، وأرهب بالظلم أهلها ، وأعنى به حكومة البرتغال ، وأفضى وجوده إلى تقلص ظل المماليك تدريجيا عن سواحل الجزيرة .

كان نجاح فاسكو دوجاما فى كشف رأس الرجاء الصالح قد نشطه للتقدم إلى الأمام فى المحيط الهندى ، قصد كشف الطريق المؤدية إلى الهند الشرقية . وعند ما بلغ هذا البحار المغامر أمنيته سنة ١٤٩٨ م بدلالة أحد الملاحين العرب أحمد بن ماجدة ، اغتبطت البرتغال بهذا الفتح الاقتصادى

وأمدت هذا البحار بالقوى الكافية للقضاء على كل عقبة تحول دون تقدم هذا الكشف .

وكان كل من المماليك بمصر ودولة البندقية قد قدر سريعا ما لهذا الكشف من المضار عليهم في الناحية الاقتصادية ، فجمعتهم المصلحة ، للتعاون على خلق المصاعب في وجه البرتغال ، وقد رافقهم الحظ مدة قليلة ، ولكن ما إن عهدت البرتغال إلى البوقرق برئاسة الحملة الشرقية حتى أفل نجمهم . فقد انقض هذا على عمارة المماليك في البحر الهندي ، فزفها شر ممزق .

ولما خلا له للبحر اتخذ جزيرة سقطرى مقرا للتحكم بمجاز باب المندب وملاحة البحر الأحمر ، هذا فضلا عن استيلائه على بعض الثغور الحصينة في اليمن وحضرموت ، واحتلاله كلا من مدينة مسقط في عمان وجزيرة هرمز . وقد أقام عدة قلاع على مقربة من الحسا وعلى الساحل الشرقى للخليج فارس ، فأتيح بذلك للبرتغال القبض على ناصية التجارة المتداولة بين فارس والهند وجزيرة العرب من جهة ، وبينها وبين أوربة من جهة أخرى . هذا ، وكان وقع نجاح البرتغال في جزيرة العرب قاسيا جدا على دولة المماليك ، وذلك من جراء تحول طرق التجارة عن البحر المتوسط ، وحرمانها موارد كانت مادة ازدهارها ، فبادر قانصوه الغورى لتجهيز حملة عظيمة سارت إلى اليمن سنة ١٥١٧ م قصد استرجاع الثغور من البرتغال ، ولكن عزيز مصر فوجىء باكنساح السلطان سليم العثمانى لبلاده ، فطارت مع أعلامه روحه ودولته .

ب - الحجاز فى حكم آل عثمان :

يبدو أن آل عثمان قد أصابهم الحسد من المماليك من جراء قيام الخلافة بمصر بعد سقوط بغداد ، ولعلهم طمعوا فيها أسوة بتيمورلنك .

وآية ذلك أنهم ما إن نشئوا نشأتهم الثانية بعد الكارثة التيمورية لنيكية ، حتى انصرفوا لاستمالة العرب ، فكان السلطان محمد الأول ، وهو مؤسس أركان الدولة في نشأتها الثانية ، أول عثمانى وجه « الصرة » لأمير مكة ، وهى المال المعد للتوزيع على فقراء الحرمين ؛ واستمرت هذه العادة جارية زمن خلفائه ، إلى آخر أيامهم . ولما ولى السلطان بايزيد الثانى (٨٨٦ هـ = ١٤٨١ م) أوفد الأمير زيزما إلى الحجاز لتوثيق عرا الصداقة بينه وبين أسرة قتادة الحاكمة ، وزوده العطايا والمال لإصلاح سبل القوافل ، وتأمين الأمن والماء فى ذلك القطر ، ولا شك أن تلك السياسة تركت كبير الأثر بين المسلمين والعرب ، وكان من تأثيرها أن انضم عرب الشام ومصر إلى صفوف ابنه باوز سليم ، حينما جاء لمحاربة دولة المماليك التى كانت تحكمهم ؛ كما أن شريف مكة حجب مساعدته وقتئذ عن هؤلاء المماليك ، وسارع لإيفاد بعثة إلى القاهرة ، حملها مع التهنئة للسلطان المنتصر مفتاح السكبة . وقد قابل السلطان هذا العطف بالإغداق على مشايخ العرب ، وبترتيب نفقة دائمة لفقراء الحجاز ، مستبقيا عادة محمل الحج المصرى التى ابتدعها المماليك من قبله . هذا ، وكان السلطان سليم مشغوقا بالألقاب ، فقد عرف بباوز سليم « أى القاطع » عقب انتصاراته الأولى ، ثم أطلق عليه لقب شاه ، من جراء انتصاره على الفرس ، وكأنه أراد أن يتمتع بلقب أعظم مرتبة من ألقابه هذه ، فاشترأت نفسه لأن يكون خليفة أيضا . فما إن بسط سليم سلطته على العرب ، حتى أمر الخليفة أن ينزل عن الإمامة ، وحينما تسلم منه العلم النبوى عمل على نقل آثار النبى والصحابة من مكة للأستانة ، ورسم أن يخطب باسمه فى الحجاز وتهامة . وإذا به يلقب بخادم الحرمين الشريفين وخليفة المسلمين .

على أن الحكم فى الحجاز استمر كالسابق فى حوزة بنى قتادة أشراف مكة ، ومنهم انتقلت الإمارة إلى بنى بركات ، وبقيت فيهم حتى القرن

الثامن عشر حيث غلبهم عليها بنو أبي نمنى ، وحافظ هؤلاء عليها حتى خرج الحجاز جميعه من يد الهواشم سنة ١٩٢٤ م . هذا وكان أشهر بنى أبي نمنى هم : الشريف مدور ، فالشريف غالب ، فالشريف حسين بن على ، وهو آخرهم . على أن تركية مع تسليمها بسلطة الشريف على الحجاز ، كانت تنصب إلى جانبه هيئة حكومة كاملة ، يرأسها الوالى وقائد الجند وكبير القضاة ، وترتبط مواردها بخزانة الدولة العامة ، ولما كانت هذه الموارد غير كافية لسد عجز ميزان هذه الولاية ، ولتغطية مرتبات الأشراف والفقراء ، كانت السلطنة ترصد مبلغا من المال كل عام تعده لمساعدة الحجاز ، كما أن حكومتى مصر وتونس كانتا تسهمان معها فى تخصيص مثل هذا الجعل السنوى للبلاد الحجازية .

هذا ، وفى سنة (١٣٢٦ هـ = ١٩٠٨ م) نصب الباب العالى الشريف حسين ابن على أميرا على مكة . وبه كان آخر عهد العثمانيين فى الحجاز ، إذ خرج عليهم هذا الشريف ، ومشى إلى جانب الحلفاء خلال الحرب العامة الأولى ، طمعا فى استقلال الحجاز والعرب ، وهو فى ذلك يستند إلى اتفاق عقد بينه وبين إنكلترة ، كان مصيره مصير كل اتفاق يعقد بين القوى والضعيف .

ح - اليمن فى حكم آل عثمان :

نشأت السلطنة العثمانية إبان قيام الدولة الرسولية باليمن (١٢٢٩ = ١٤٥٤ م) وترعرعت خلال الدولة الطاهرية (١٤٤٦ - ١٥١٧ م) ، وبلغت ذروة مجدها أيام السلطان سليمان القانونى ، الذى أصبح محطاً لآمال العالم الإسلامى . وقد جاءه وهذان من الهند يستجيران به من طمع البرتغال وجورها ، فأعد عمارة برحت السويس سنة ١٥٣٨ م متجهة إلى عدن ، فبلغتها فى بضعة أشهر ، واستولت عليها ، ثم تحولت إلى غزو المعاول التى استولى عليها البرتغاليون فى خليج فارس ، وانتهى بها المطاف إلى بلوغ سواحل

الجوزرات في الهند . ولما قفلت راجعة رست أمام المخا في تهامة اليمن ، فاستسلمت لها مدينة زبيد ، وأبقت فيها حامية .

وكان النضال في أثناء ذلك متصلا بين آل عثمان والفرس ، وصبغته السياسة بلون طائفي ، الإسلام برىء منه . وقد عز على الفرس نجاح العثمانيين في اليمن ، فهبوا إلى مقاومتهم بالدعايات بين كثرة أهليه الزيود ، فكان ذلك بالإضافة إلى حرص اليمن على الاستقلال ، مدعاة لاتصال الحرب بين العثمانيين واليمنيين طوال أعوام ١٥٣٩م إلى ١٥٦٨ . على أن الباب العالي وإن استطاع أخيرا أن يتغلب على قواعد اليمن : كصنعاء ، وعدن ، والمخا ، وتعز ، وزبيد ، إلا أنه لم يكن يستطيع أن يحتفظ بها طويلا ، خصوصا بعد أن استتب الأمر لدولة أئمة صنعاء منذ سنة ألف للهجرة (١٥٩١ م) . فانهى به الأمر إلى التخلي عنها ، والاعتراف بخلافة الإمام مطهر الزيدى ، ولكن لم يأت على ذلك إلا قليل من الزمن ، حتى سئحت الفرصة للسلطنة لأن تستعيد اليمن إلى حظيرتها ، وتجبر إمامها المشار إليه على عقد صلح يعترف فيه بسيادتها ، مكتفيا بالإمارة على كوكبان التي بقيت وحدها في حوزته .

وفي أوائل القرن السابع عشر خرج على العثمانيين السيد قاسم أحد أقرباء الإمام مطهر ، وأعلن استقلاله ، ونودى به أميرا للمؤمنين ، وسك النقود باسمه ، وقد حاول السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ — ١٦٤٠ م) إخضاعه ، فحمل عليه برا وبحرا ، ولكن حملاته هذه ذهبت أدراج الرياح . غير أنه قد تولى الحكم في اليمن بعد الأئمة الأوائل المعروفين بالعقل والبسالة ، خلف كانوا ضعاف النفوس ، قساة القلوب ، أضاعوا سلطتهم ، وفسحوا المجال لقيام الثورات وانقسام البلاد ، حتى إن مدينة صنعاء نفسها ، انقسمت أيضا إلى شيع وأحزاب أخذ يقاتل بعضها بعضا ، وتشتجد القبائل الذين كانوا يعيشون في الأرض فسادا .

وكانت تركية التي تتحين الفرص للانقضاض على اليمن تجدد في هذه الفوضى مجالا لتحقيق الأمل . فقامت خلال ذلك بحملة محاولات قصد الاستيلاء على تلك البلاد ، فكانت تفتتحها مرات ثم تضيعها ، وذلك بين سني (١٧٨٠ و ١٨٧٠ م) . حتى إذا كان عام ١٨٧١ نزلت حملة تركية جديدة في تهامة ، وسارت نحو القاعدة ، فقابلها وفد من أعيان البلاد ، وأعلن استسلام صنعاء وكافة بلاد الهضبة اليمنية .

أما الأسرة الحاكمة الزيدية فقد انسحبت إلى الأقاليم الشمالية ، حيث احتفظت بمظهر بسيط من مظاهر السلطة الروحية . وبذلك استقر الحكم التركي في اليمن كرة أخرى .

وقد جرت عادة السادة الزيود ، حتى إبان الحكم التركي ، أن ينتخبوا الأمراء ، ويثابروا على تلقيب كل منهم « أمير المؤمنين » و « المتوكل على الله » . وفي سنة ١٨٩٠ انتخبوا في مدينة صعدة على تخوم العسير إمامهم الجديد محمد حميد الدين ، وأصبح ابنه الأكبر يحيى يتمتع بلقب سيف الإسلام . وكانت هذه البيعة نقطة انطلاق جديد ، لتحرير اليمن من النير الأجنبي . وذلك أن الإمام الجديد جمع بعض الفرق العسكرية ، واخترق بهم الجبهات التركية في حجة وعمران ، وسار حتى حاصر صنعاء . وكانت فرصة للشاب الأمير يحيى ، لإظهار مواهبه العظيمة وبسالته ، حتى إنه عند ما توفي والده في عام ١٦٠٤ اتجهت أنظار قومه إليه ، وكانت باكورة أعماله إعلان الحرب على الأتراك ، وثابر على الزحف حتى بلغ أسوار صنعاء ، ودخلها دخول الفاتحين .

ولكن الإمام يحيى اضطر مرتين لإخلائها على أثر وصول النجيدات التركية ، وانتهى به الأمر إلى الانسحاب إلى « قفلة عذر » ، وهو المكان الذي كان والده الإمام محمد حميد الدين اختاره من قبل مستقرا له ، عقب انتصار الجيوش التركية .

غير أن هذه الهزيمة التي منى بها الإمام يحيى لم تفت في عضده ، بل ظل يكافح الغزاة بصبر وعناد ، ويوقع بهم خسائر فادحة ، حتى لقبت اليمن في تلك الحقبة بمقبرة الترك ، والحق أنها كانت مقبرة العرب ، لأن الحملات التي كان يسوقها السلاطين لتأديب اليمن ، على حد تعبيرهم ، كانت تصدر في بداية الأمر عن مصر ، ثم صارت تعباً من الولايات العربية القريبة ، بعد انفكاك مصر عن الآستانة . ولطالما كنا نرى الأجناد الذين يعودون سالمين من اليمن على حال تثير الشفقة ، فنتساءل أكانوا لا يزالون أحياء أم أمواتا .

هذا ، وقد حاول حزب الاتحاد والترقي الذي تفرد بالسلطة بعد خلع السلطان عبد الحميد ، أن يضرب الإمام ضربة قاضية ، كما حاولوا أن يقيموا إماما زيديا آخر بدلا منه ، ولكنهم أخفقوا ، وما كان ذلك من جراء ثبات جلالته فحسب ، بل لأن قيام إيطاليا ودول البلقان على تركية حملهما على التراجع عن اليمن ، واضطرهم لتوقيع اتفاق سنة ١٩١٢ الذي انحصر بمقتضاه نفوذ السلطنة في مدينة صنعاء ومعظم تهامة في الساحل .

وأما الأقاليم الزيدية ، فقد خضعت من ثم في الناحيتين الإدارية والدينية للإمام يحيى ، الذي أقام الأحكام على الشريعة الإسلامية ، متخذاً مدينة خمر في شمالي صنعاء مقراً لحكومته .

وقد نشبت الحرب العامة الأولى بعد نحو سنتين من ذلك ، ومشى شريف مكة في صفوف الحلفاء ضد السلطنة . أما الإمام اليمن فقد رفض بشم ولباء كل محالفة اقترحها عليه الإنكليز ، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها دخل صنعاء دون مقاومة ، وكان ذلك وفقا لمعاهدة موندروس التي عقدها الترك مع الحلفاء سنة ١٩١٨ وقضت عليهم بالجللاء عن جميع الأقطار العربية . ولما تلتها معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ ، التي وقعها كل من الترك والحلفاء ، كان على الباب العالي أن يعترف بمقتضاها باستقلال اليمن ، فكان استقلالاً ناجزاً .

على أن بريطانيا العظمى استطاعت وحدها أن تبقى جاثمة في جنوب اليمن . فهي قد احتلت ثغر عدن منذ سنة ١٨٣٩ ، وأدخلته من بعد في نطاق المستعمرات الإنكليزية، واتخذته قاعدة استراتيجية لبسط حمايتها على المحميات ، بمقتضى معاهدة ربطت بها عواهل تلك السلطات والإمارات .

و — حكومة عسير :

وقامت حكومة أخرى في أرض اليمن في مستهل القرن الحاضر ، وهي حكومة الإدريسي بصير ، وتنسب إلى السيد أحمد الإدريسي المخزومي . جاور هذا الرجل في مكة سنة ١٧٩٩ ، وأقام فيها مرشدا إلى طريقته . ثم هاجر إلى عسير ، وصاهر الأسرة السنوسية ، فاشتهر فيها ، وانشأ نفوذه حولها ، وأراد حفيده السيد محمد علي ، خريج الأزهر وتلميذ الكفيرة مقر السنوسى - استغلال هذا النفوذ، فكان له ما أراد، حتى استطاع أن يطرد الترك من متصرفية عسير سنة ١٩١٠ م ، وحاصر بها قاعدتها ، فوسع تركية وقتئذ إلا أن تنجته نحو الشريف حسين بن علي أمير مكة وكان لا يزال مواليا لها ، فحمل هو بنفسه على الإدريسي ، وأجلاه عن عسير . ولكن الفرص لم تلبث أن سنعت للإدريسي بعد قليل إبان الحرب التي وقعت بين الترك وإيطاليا سنة ١٩١١ ، لأن يعود إليها ، متفقا مع حليفته حكومة روما ، ثم اكتسب أيضا فرصة الحرب التي نشبت بين السلطنة ودول البلقان ، واستعاد عسير ، وأقام فيها حكومة مستقلة . ولكن هذه الحكومة لم يقدر لها العمر الطويل ، بل سرعان ما انقسمت عسير بين دولتي اليمن والعربية السعودية ، إلى أن تفرّد فيها آل سعود .

ه — آل الرشيد في حكم آل عثمان :

يتصل نسب آل الرشيد بقبيلة شمر ، وقد عرفوا بحسن العلاقات التي كانت تربطهم بالباب العالي ، فحينما أتيحت لمدحت باشا والى بغداد

ان يعيد سلطة الدولة على بلاد نجد ، كافتة الدولة بالولاية على إمارة حائل ، الواقعة في القسم الشمالى منها ، ثم وجد محمد بن الرشيد فى الخصام الدموى الذى نشب بين الأخوين عبد الله وعبد الرحمن آل سعود ، مجالا للتدخل فى شئون الرياض ، لضمها إلى إمارته . وقد أراد هذا الأمير أن يظهر بمظهر السباحة والاعتماد على النفس ، بمعاملة الأميرين عبد الله وعبد الرحمن آل سعود ، فأذن لهما بالرجوع إلى الرياض ، والسكنى فيها إلى جانب عامله . وقد توفى عبد الله عقب العودة إلى بلده . وأما عبد الرحمن وهو والد جلالة الملك عبد العزيز ، فلم يطق صبرا على رؤية أولئك الذين كانوا بالأمس تابعين لأسرته يتحكمون اليوم فى إمارتهم ، فانقض على ابن الرشيد وقتله ، ثم اصطالحا على أن يتولى عبد الرحمن إمارة الرياض مستقلا ، ولكن عبد الرحمن أعاد الكرة على آل الرشيد ، بالاتفاق مع أمراء القصيم ، ولما لم ينل مأربا منهم اضطر للهجرة إلى الأحساء سنة ١٨٩١ م فالكويت ، واستقر فيها .

وخلا الجو منذ ذلك الوقت للأمير محمد بن الرشيد ، وأصبح زعيم نجد المطلق ، معززا بعطف تركية . وكأن نفسه الطموح راودته أن يكتسح الكويت ، فيدرك منفذا على البحر ، أو لعل تركية حملته على أن يفكر فى هذا الأمر حينما استشعرت الخطر الأجنبى يحيق بذلك القطر . ولكن إنكلترا سبقته إلى الكويت ، وأعلنت عليها حمايتها ، وجعلتها مركزا استراتيجيا لها فى شرق الجزيرة . ومنذ ذلك الحين أصبح النزاع بين آل الرشيد وآل سعود لا يتعدى كونه ستارا يخفى وراءه نضالا آخر ، قائما بين سياسة كل من إنكلترا وتركية . فكان من الطبيعى أن تكون الغلبة للندن على الأستانة .

وقد أخذ شأن آل الرشيد ينحط من جراء الخلافات الداخلية ، وخصوصا بعد زعيمهم عبد العزيز بن متعب الذى قتل سنة ١٣٣٤ هـ . أما ابن سعود فإنه اهتبل هذه الفرصة ، وخرج على الترك فى نجد سنة ١٩٠٦ م ، وأجلاهم عنها .

ثم كانت الحرب الكبرى الأولى ميدان عراق مكشوف بين الإنكليز والعثمانيين في سائر جزيرة العرب ، وانتهت الحرب بفوز الحلفاء ، وبالقضاء على كل نفوذ للترك في تلك البلاد . أما إمارة آل الرشيد فقد أخذت بعد آل عثمان تحاول الاتفاق مع كل من شريف مكة وحاكم الكويت على آل سعود ، فإذا بابن سعود ينتقض عليهم انقضاء النسر ، ويطوى صحيفتهم سنة ١٩٢١ . وهام أولاء يعيشون في كنف جلالته طلقاء مكرمين ، كما كان والده وعمه من قبل أعزاء في رحاب آل الرشيد ، وكما تدين تدان .

و — آل سعود في حكم آل عثمان :

الوهابية وإمارة السعوديين الأولى :

أصاب تركية أواخر القرن السابع عشر ، في أثناء حروبها مع روسيا وفارس خذلان إثر خذلان ، خدم العرب وغيرهم في جهادهم القومي . ثم تعاقب على عرش السلطنة منذ مفتح القرن التالي خمسة عواهل كانوا غير أكفاء . فاهتز البعث القومي خلال حكمهم وربما ، وانفسح المجال في جملة ذلك إلى حركة كانت قومية في العاطفة ، ودينية في الغاية ، حدثت في نجد ، وكادت تجمع شتات جزيرة العرب وتحركها ، وتهض بها نهضة الإسلام الأولى ، وأعنى بها الوهابية .

واضع هذا المذهب رجل تميمي ، اسمه محمد بن عبد الوهاب ، طلب العلم في بغداد والبصرة ، ولما عاد إلى نجد في منتصف القرن الثامن عشر ، كبر عليه أن يرى وطنه وسائر الجزيرة يهيمن في جهالة لاحد لها ، فود النهوض بها ، فدعا إلى الاعتماد على القرآن ، وإلى شريعة بيضاء نقية ، كما تركها محمد ، ونهى عن الغلو في تقديس الأنبياء والأولياء . وكان خلال ذلك ينكر على الترك تحكمهم ، ويؤاخذهم على الأخلاق التي تعتبر في الشرع فسادا ، وربما كان يصورهم زنادقة ، إثارة لقومه إلى الجهاد .

وكانت قبائل نجد وغيرها لا تعرف من الدين إلا أنها مسلمة ، فأقبلت على دعوته ، واستمسكت بالآداب التي يبشر بها . وكان زعيم صريديه محمد ابن سعود يجمع بين الشجاعة والحكمة ، فعقد له عبد الوهاب راية القيادة ، وزوجه من ابنته ، فاستطاع بحقله الكبير أن يؤلف بين القبائل ، وأن يوجهها إلى أطراف الجزيرة ، لتنشر الوهابية . وكان الأمراء البارزون في جزيرة العرب وقتئذ هم أشراف الحجاز ، وبنو خالد في الأحساء ، وآل خليفة في البحرين ، وآل معمر في العينة ، وآل السعدون في العراق ، والإمام المتوكل في صنعاء ، والسادة في نجران ، وسلاطان بتهان . فأعلنت نجد عليهم حروبا دامية ، كان هدفها الإصلاح على أساس المذهب الوهابي . توفي محمد بن سعود (١١٩٧ هـ = ١٧٦٦ م) ، وخلفه ولده البكر عبد العزيز ، وفتح الأحساء ، وقضى على إمارة بني خالد ، وهادن شريف مكة ، وبسط حمايته على آل خليفة في البحرين . ثم أتيح لخليفته وابنه سعود (١٢١٨ هـ = ١٨٠٣ م - ١٢٩٩ هـ = ١٨١٤ م) ما لم يتح لغيره منهم ، فدخلت في طاعته مكة والمدينة والطائف وجدة حتى حران ما بين مكة ودمشق . هذا ، فضلا عن استيلائه على عسير وقسم من اليمن ، بالإضافة إلى الأحساء والبصرة والبحرين وتهامة . أما الدولة العثمانية فقد هالها الأمر ، وحسبت للخطر ألف حساب ، فوالت إصدار الأوامر إلى حكام البصرة وبغداد ووجدة ومصر والشام ، تحضهم على إرسال الحملات لوقف تيار الوهابيين ، ووجه السلاطان محمود الأول ومصطفى الثالث الهدايا الفاخرة إلى شريف مكة هذا ، وكان نابليون بونابرت قد فسح المجال لهذا النجاح الذي أصابه الوهابيون : فهو بحملته على مصر صرف تركية عن جزيرة العرب برهة ، كما أنه شغلها عن كل شيء آخر ، كما شغل سائر الدول حينما صار أمبراطورا ، وفضلا عن ذلك فقد أوفد في تلك الأثناء المسيو لسقارييس إلى بلاد العرب ، قصد الاتفاق مع القبائل ، ليؤمن لجيشه عبور الطريق التي

سلكها الإسكندر إلى الهند وكان على هذا الرسول أن يؤيد القبائل المختصة لتركية لأن تركية كانت حليفة لإنكلترة، وأن يزود هذه القبائل المال والعتاد . روى المؤرخ الفرنسى سديو Lexdeillot فى تاريخه عن العرب ، قال : « إن لسقاريس هذا كان على اتصال بالأمير سعود زعيم الوهابيين .

ز — استعادة تركية جزيرة العرب واضمحلال السعوديين :

ثبت الباب العالى محمد على باشا على مصر ، بعد قضائه على المماليك ، وأضاف إليه ولاية الحجاز ، فكان عليه أن ينقذ هذه الولاية من الوهابيين . فتمكن ابنه طوسون باشا بعد حرب سجال وقعت بينه وبينهم مدة عام ، من استرداد مكة والمدينة وجدة والطائف . ولكن آل سعود عادوا فجمعوا جمعهم ، وكروا على الحجاز بقوة ، ومن وراءهم اليمين تعززهم ، فبلغوا الطائف وحاصروها ، وتوفى الأمير سعود بن عبد العزيز وهم على حصار الطائف ، ولم يكن بين أولاده من يخلفه فى الجدارة والإقدام ، فتسنى لمحمد على باشا الذى تولى القيادة بنفسه أن يجلبهم عن الحجاز ويفوز عليهم فوزا مبينا سنة ١٨١٥م . كما أتيح لولده إبراهيم باشا الذى أخذ يطاردهم أن يدخل فى العام التالى قاعدتهم الدرعية ؛ وحينئذ لم يسع شيخهم عبد الله بن سعود إلا الاستسلام ، فنقل مخفورا إلى إستانبول ، وقتل فيها .

ح — الإمارة السعودية الثانية :

لقد كان قتل عبد الله بن سعود حافزا لنشاط قومه على الاستبسال فى النضال ، فاستطاع تركى بن عبد الله فى أثناء الفوضى التى عادت إلى نجد استرداد الرياض . ولما صارت الإمارة لابنه فيصل كاد يمثل دور أجداده ، ويتبسط فى الجزيرة ، ولكن الخلاف الذى وقع بين السعوديين أنفسهم كان مساعدا للحمالات التى تابعت على خضد شوكته ، وسوقه مأسورا إلى مصر .

وكان خالد بن سعود يرافق الحملة الأولى التي ساقها مصر على السعوديين، فكافأته الدولة على ذلك بنصبه حاكماً على نجد، ولكنه ما كان لينجح في مهمته وهو يمثل الحكم الأجنبي، إذ أن أهل نجد كانوا حريصين على استقلالهم، لذلك أقبلوا على خصمه عبد الله بن ثنيان يعاضدونه.

وخلال ذلك تسنى لفيصل بن تركي أسير مصر الهرب منها، فأسلم له سائر الرؤساء قيادهم، واتحدوا تحت رايته، فاستردوا ما كان قد فتحه أجداده في جزيرة العرب، ماعدا الحجاز.

ويظن حافظ بك وهبة وزير الملك ابن سعود بلندن « أن قرار فيصل المشار إليه كان بعلم عباس باشا الأول حاكم مصر ». أما نجاحه فلعله يعود إلى انسحاب الجيوش المصرية من جزيرة العرب، عملاً بمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ م. ومهما يكن السبب، فالواقع أن ذلك النجاح كان قصير الأمد، من جراء الخصام الذي استفحل أمره بعد وفاته بين ولديه عبد الله وسعود، ففسح المجال لمدحت باشا والي بغداد، للقضاء على إمارة السعوديين مرة أخرى، مستعيناً عليهم بآل الرشيد.

ط — الإمارات السعودية الثالثة :

كان الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن « جلالة الملك الحالي » ينزل مع والده في رحاب الشيخ مبارك أمير الكويت، مذ قضى مدحت باشا على إمارتهم. أما نجد والرياض بلاده فقد كانت تطأطأ الرأس لآل الرشيد، كافأتهم بها الدولة العثمانية على مساعدتهم لها على آل سعود. فكان الألم يحز في قلب هذا الشاب، إذ يرى نفسه مهاجراً وهو على قيد أميال من وطنه العزيز. وفي مطلع القرن العشرين وطد عبد العزيز العزم على العمل، فإما الفوز والعز، وإما الموت دون ندامة. وفي الواقع كان عمله شديد الخطر، ولا يقدر نجاحه إلا بنسبة واحد في المئة.

دخل عبد العزيز الرياض ليلا ، على رأس كتيبة قليلة العدد ، وبات فيها مستخفيا ، حتى إذا تنفس الصبح ، وبكر عامل ابن الرشيد باستعراض خيله ، عاجله بالقتل ، وأعلن حكم آل سعود في قاعدة إمارتهم ، ثم قضى ما يزيد على عشرين سنة يناضل الخصوم : من نجديين ، وهاشميين ، وترك ، وهويقال بالقوة بالقوة حينما ، ويستعمل اللين حينما يراه أجدى ، حتى مكنته جدارته من ناصية نجد .

وكان العثمانيون خلال ذلك يناصرون ابن الرشيد على ابن سعود ، فكانت الحرب سجالات بين الإماراتين ، إلى أن انتهى الأمر ، وباء الترك بالخيبة ، وانسحبوا من نجد سنة (١٣٢٤هـ = ١٩٠٦م) فنسنى لابن سعود أن يضم القصيم إليه ، ذلك الإقليم المشهور بسهله الواسع الخصيب ، ثم رأى ابن سعود أن الفرصة سانحة عند خروج تركية منهوكة القوى من حربي إيطاليا والبلقان (١٩١١ - ١٩١٣م) ، فانقض على إقليم الأحساء مقام المتصرفية ، واستولى عليه ، فأصبح من ثم على اتصال سياسى وثيق مع بريطانيا العظمى . ولما اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م لزم الحياد في بادئ الأمر ، ولكن الدوننج ستريت « مقر الوزارة البريطانية » ظل يستميله ، حتى وقع معاهدة القطيف سنة ١٩١٥م . وكانت كسائر المعاهدات التي عقدها أمراء خليج فارس ، تقضى بارتباط سياسته الخارجية بسياسة بريطانيا العظمى ، وبالخروج للدخول في حمايتها . ولكن هذا البطل لم يستسلم طويلا للأمر الواقع ، وإذا به ينقذ الموقف بمعاهدة جدة سنة ١٩٢٧م ، تلك المعاهدة التي اعترف فيها بالاستقلال التام للدولة العربية السعودية .

ى - سواحل الجزيرة في حكم آل عثمان :

كانت البرتغال باستيلائها على بعض الجزائر مما يلي السواحل العربية قد جعلت البحر الأحمر وخليج فارس والمحيط الهندي منطقة نفوذ لها

ولما أتيح لتركية التغلب على بلاد العرب ، عقدت العزم على الرجوع إلى السياسة السلبية التي كان يملك مصر اتخذوها ضد البرتغال ، وبشرت ذلك بالحملة التي أرسلها السلطان سليمان القانوني للجوزرات الهندية ، نجدة لحاكمها البرتغالي سنة ١٥٣٨ ، فكانت من قبيل الكشف ، ثم رأت أن تنبع خطة فعالة حازمة لمواجهة الخطر الأوربي هناك ، فنصبت في مرفأ السويس قبودان باشا ، وعهدت إليه منذ سنة ١٥٥١ مهام ما وراء البحر الأحمر . وفعلا تقدم أسطولها يأمرة برى باشا إلى خليج فارس ، وهدم مدينة مسقط التي كانت للبرتغال مركزا استراتيجيا تتحكم فيه بعمان ، وحاصر جزيرة هرمز ، فافتداهم البرتغاليون بالمال الكثير . وهكذا أصبح خليج فارس من ثم ميدان نضال بين كل من العثمانيين والفرس من جهة ، وبين البرتغال من جهة ثانية . وكانت بريطانيا العظمى التي أخذت تبسط سلطتها على الهند قد أصبحت أشد حرصا من تركية وفارس ، على تحطيم نفوذ البرتغال في الخليج الفارسي والبحر الهندى ، لذلك خفت شركة الهند الإنكليزية إلى الاشتراك مع الشاه عباس فى قتال البرتغال ، فتعاونوا على طردهم من ثغر هرمز والبحرين سنة ١٦٢٢ م ، كما تولى العرب أنفسهم منذ ابتداء القرن السابع عشر مهمة إجلاء هذه الدولة اللاتينية عن سائر السواحل ، وقامت هناك إمارات عربية مستقلة ، بينها إمارة كانت تنسب إلى أشراف مكة ، شمل حكمها كلا من هرمز والبحرين والحساء وكلوة وزنجبار .

هذا ، وقد قصى التنافس التجارى بين دول أوربة بأن تبرز للبيدان دول جديدة ، فاستولى الهولنديون سنة ١٧٥٥ على جزيرة كرك ، ومد الفرنسيون والإنكليز أعناقهم إلى مسقط ، فردهم العرب واستعادوا كرك ، وقد دخلت هذه الجزيرة من بعد فى حوزة الفرس .

على أن فارس التي رضيت بمساعدة شركة الهند على البرتغال ، كانت كالمتجير من الرمضاء بالنار ، لأن إنكلترة لم تلبث أن استولت على جزيرة

كرك في خليج فارس ، متظاهرة بأنها تريد القضاء على القرصنة وتأمين الاتجار هناك .

واتجهت بأنظارها إلى مسقط وعدن ، وانتهزت الفرص لنشر معتمدتها في منى باليمن والسويس وجدة والبحرين ، ثم احتلت عدن سنة ١٨٣٩ م ، واتخذتها قاعدة بحرية قائمة بين الهند وبين الجزر البريطانية ، وضمت إليها السلطنات السبع المحمية ، على حين واصلت من جهة أخرى مساعدتها للتوسع ، حتى بسطت حمايتها على حكومات إمارات خليج فارس ، كما فصلنا ذلك في كتابنا « قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور » .

وهكذا استطاعت بريطانيا العظمى أن تطوق جزيرة العرب ، وتقيم سلطانها على أنقاض البرتغاليين ، هازمة الفرنسيين الذين خفوا لمنافستها منذ القرن السابع عشر ، ومخيبة آمال العثمانيين الذين حاولوا في القرن التاسع عشر تمكين سيطرتهم على سواحل الجزيرة الشرقية ، وقد أصبحت الجزيرة منطقة نفوذ لها ، بفضل مستعمراتها ومحيطاتها الآتى ذكرها :

المستعمرات :

- ١ — عدن .
 - ٢ — باب المندب .
 - ٣ — مشيخة قطر .
 - ٤ — مشيخة دبي .
 - ٥ — إمارة جزيرة البحر
- المحميات العليا العواتق
- (١) محميات عدن ، وتشمل
- أ — سلطنة لحج .
 - ب — مشيخة الضالع .
 - ... سلطنة يافع العليا .

- و — سلطنة يافع السفلى .
- هـ — سلطنة الصبيحة .
- و — سلطنة الفضلي .
- ز — سلطنة العوالق .
- ح — سلطنة الحواشب .
- ط — سلطنة الواحدى .
- ى — مشيخة القطيبي .
- (٢) سلطنة حضر موت القعيطية .
- (٣) سلطنة حضر موت الكثيرية .
- (٤) سلطنة مسقط وعمان .
- (٥) سلطنة جزيرة سقطرى وبلاد المهرة .
- (٦) إمارات ساحل الخليج الفارسي .
- (٧) إمارات الكويت .

تضاف إلى كل ذلك مملكة زنجبار، التي دخلت في نطاق الحماية الإنكليزية منذ القرن الماضى . ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن إنقاذ بريطانيا العظمى لتركية من مخالب نابليون بونابرت ، وتحريرها بلاد الشام من الاحتلال المصرى ، كانا مساعدين لها على التوسيط في سواحل جزيرة العرب، من جراء النفوذ الذى صار لها عند الباب العالى .

هذا ، ولولا أن جلالة الإمام يحيى حميد الدين ملك اليمن ظل على الحياد خلال الحرب العالمية الأولى ، ولم تؤثر فيه إغراءات لندن، لكان فى وسعنا القول أن جزيرة العرب كلها أمست وقتئذ منطقة نفوذ بريطانية ، خصوصا منذ أتيح لبريطانيا العظمى عقد معاهدة القطيف سنة ١٩١٥ مع جلالة الملك ابن سعود ، ومعاهدة الملك حسين (شريف مكة) سنة ١٩١٦ .